الحصون والقصبات بالمغرب وأدوارها التاريخية
(ضفاف وادي أم الربيع نموذجا)

الباحث المصطفى الرباني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال
المغرب

ملخص

يزخر المغرب الأقصى بمؤهلات للتراث المعماري، وتعد ضفاف وادي أم الربيع وسط البلاد موطنا لكثير من المعالم التاريخية والتي تشهد على عمق البعد التاريخي بالمنطقة، وفي هذا الإطار قدمنا تعريفا مفاهيميا لكل من وادي أم الربيع وحددنا تموقعه في الخريطة المغربية، كما قمنا بجرد وتصنيف أبرز القصبات والقلاع والحصون المنتشرة على جنباته، ومنها قصبة الزيدانية وقصبة ابن الكوش وقصبة إدخسان وقصبة فشتالة وقصبة الدلاء، وحصن تاكرارت وقصر عين أسردون. وكان تركيزنا كبيرا على القصبة الإسماعيلية بمنطقة تادلا والتي يعود بناؤها للسلطان المولى إسماعيل خلال القرن 17م، حيث تطرقنا لعناصرها وخصائصها المعمارية، كما بسطنا لتدخل الجهات الوصية من أجل ترميمها وجعلها رافعة للتنمية المحلية.

الكلمات المفتاحية

وادي أم الربيع/ الحصون/ القصبات/ القصبة الإسماعيلية/ الترميم والتنمية المحلية.

مقدمة

يعتبر وادي أم الربيع من أهم الأنهار بالمغرب، وإذا كانت أهميته الجغرافية يستمدها من كونه شريانا مائيا دائم الجريان يتغذى من جبال الأطلس المتوسط، فإن مكانته التاريخية لا تقل أهمية، إذ كان يشكل في محطات تاريخية معروفة نقطة لقاء وتصادم بين الأطراف المتنازعة على السلطة. حيث مثل حدا فاصلا عندما كانت البلاد تنقسم إلى كتلتين سياسيتين واحدة في فاس وأخرى في مراكش، كما شكل معبرا ضروريا للتجارة وموقفا للاستراحة والالتقاء بين الشمال والجنوب. كما امتدت على ضفافه عبر التاريخ عدة تشكيلات قبلية تقاسمت من خلاله وسائل العيش منتجة تراثا ماديا ولامايديا.

وبالنظر إلى أدواره التاريخية هذه، فلقد تأسست على ضفافه كثيرا من الحصون والقصبات التي تعدت وظائفها الجوانب العسكرية من ضمان لأمن المجال، إلى الجوانب الاقتصادية والبشرية، من خلال تأمين القوافل التجارية وتخزين العوائد الجبائية والمنتجات الفلاحية التي كان يعاد توزيعها في أوقات الأزمات والجفاف.

فما هي أهم القصبات والحصون المشيدة على ضفتي نهر أم الربيع؟

ماذا عن أدوارها التاريخية، وخصوصياتها المعمارية، وكيف هو واقع حالها اليوم؟

ثم كيف يمكن تأهيلها لخلق التنمية المحلية؟

أولا: التعريف النظري والمفاهيمي: وادي أم الربيع، القصبات، الحصون

1- أم الربيع بين الأسطورة والكتابات المصدرية

يعتبر نهر أم الربيع من بين أهم وأكبر الأنهار بالمغرب، وقد نالت شهرته حيزا كبيرا في الأسطوغرافيا التقليدية، حيث ورد ذكره عدة مرات لدى ابن الزيات في مؤلفه التشوف تحت اسم "واد وانسيفن" أو "أسيف أم الربيع"، كما ورد ذكره لدى كثير من الرحالة والجغرافيين كالحسن الوزان، والشريف الإدريسي، وعبد المنعم الحميري إذ يقول هذا الأخير: "أم ربيع قرية كبيرة جامعة فيها أخلاط من البربر، وبها ألبان وأسمان ونعم كثيرة وهي جنوب الوادي"، كما يصف أهل القرية بالشجاعة وبتصارعهم اليومي مع الحيوانات المفترسة[1].

وقد تكون بلدة أم ربيع في تقديرنا هي بلدة خنيفرة التي أخذ النهر منها تسميته الجديدة، وأم ربيع دليل على أن البلدة تنتج أرضها كلأ وفير للماشية.

ولقد ورد في بعض المصادر التاريخية أن السكان كانوا يلجؤون إلى استغلاله في مجال الملاحة، ونقل البضائع خاصة الأخشاب التي يتم نقلها عبر مجرى النهر إلى المراكز الحضرية والقروية.

وأكد ابن خلدون في مقدمته أن العمران البشري إنما يكون في الغالب إلى جوار الأنهار، ونهر أم الربيع لا يستثنى من هذه النظرية، فهو وإن كانت لا تقوم على ضفافه إلا ثلاث مدن وهي خنيفرة، وقصبة تادلة، وأزمور، إلا أن حجم الكتل البشرية وأعداد القبائل التي تساكنت أو تناثرت على المساحات السهلية المتاخمة لضفافه لا يمكن عدها أو حصرها.

كما شكل النهر مجالا للأحداث التي رسمت تاريخ المغرب، ولعل أبرزها الصراع السعدي الوطاسي حول السلطة، حيث تم جعل النهر حدا فاصلا بين مملكة فاس ومملكة مراكش، كما بات يشكل واد أم الربيع نقطة اللقاء والصراع وبمجاله يتحقق الانتصار أو الانهزام[2].

وبالنظر لصبيبه القوي وجريانه الدائم فقد ارتبطت به مجموعة من الأساطير، ومنها أن النهر أقسم أن يهلك أربعين نفسا في السنة، كما أن الناس اعتادوا الابتعاد عن ضفافه لحظة الغروب لأن من شأن الاقتراب منها أن يصيبهم بمكروه، هذا مع أن بعض منابعه ظلت تشكل مزارا للراغبين في الزواج، وأن الاستحمام بمياهها تعتبر فاتحة خير للتخلص من العنوسة.

منابع أم الربيع بالأطلس المتوسط

Source: www.assabah. Ma, 2014

2 – مفهوم القصبة

يراد بالقصبة في بلاد المغرب بناية محصنة بأسوار، وهي التي تقابلها كلمة القلعة الشائعة في بلاد المشرق، ويتم تشكيلها في الغالب كملجأ لمثلي المخزن في حالة أي هجوم طارئ، وغالبا ما يكون موقع القصبة محصن طبيعيا بأودية أو جبال يصعب اقتحامها بسهولة، كما يتم اختيار الأماكن المرتفعة حتى يكون إشرافها مباشرا لكل التحركات.

وتشكل القصبات مقرا لمثلي المخزن الجهوي، إذ تكون شبيهة بمدن صغيرة محصنة بسور يضم بداخله المساجد والمخازن ودور الحاشية، وتبرز داخل هذه التشكيلة المعمارية دار القائد بفضاءاتها الرحبة وأبوابها العريضة وبنائها المحكم.

ونشير إلى أن معظم القصبات المعروفة في المغرب كانت تتوفر على باب رئيسي واحد متميز بالضخامة والجمالية، وأبواب ثانوية مخفية تستعمل في حالات الطوارئ كمنافذ للهروب أو للتزود بالمؤن والأسلحة[3].

كما كانت قصبات أخرى أقل أهمية تبنى بغرض تأمين الطرق، حيث ظهرت أغلبها في عهد المولى إسماعيل، إذ امتدت من وجدة إلى واد نون وبلغ عددها 76 قصبة، شيدت في مناطق استراتيجية كمرصد لضمان ولاء القبائل ولاستخلاص جباياتها والإشراف على أمن التجار. لكن خلال القرن 19 اقترن مصطلح القصبات بالقواد الكبار، كقصبة القائد الكلاوي والكندافي بالجنوب، وموحوا وحمو بزيان، وموحا وسعيد بأيت ويرة.

3- مفهوم الحصن

الحصن: من حصن، يحصن، تحصين، وتحصين المكان أي منعه وصيانته، والحصن جمع حصون وهو الموضع المنيع والملجأ الحصين الذي يشكل حماية الجنود[4]، ولقد ذُكرت الحصون في سورة الحشر آية 14 "لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة"، ونشير إلى أن الحصون تختلف عن القصبات في كونها مباني عسكرية محصنة وليست مدنية، وقد بنيت تحديدا بهدف دفاعي وبناؤها سبق بناء القلاع، وتقام بشكل دائم أو مؤقت إذ تنتهي وظيفتها بانتهاء المعركة.

ثانيا: القصبات والحصون المشيدة على ضفاف نهر أم الربيع وأدوارها التاريخية (محاولة في الجرد والتصنيف)

1- الأدوار التاريخية للقصبات

لا تخرج القصبات المشيدة على طول واد أم الربيع عن السياق الذي بنيت فيه القصبات الأخرى في باقي أنحاء المغرب، وجدير بالذكر أن نشير إلى أن أغلب القصبات التي تأسست في هذه المنطقة تعود إلى فترة المولى إسماعيل، وقد شيدت معظمها على الضفة اليسرى للنهر وعلى طول دير جبال الأطلس المتوسط، والتي توفر لها مكانا طبيعيا يمكن من الإشراف على السهل.

ومن جهة أخرى فإن هذه القصبات تجسد احتكار الدولة لمشروعية العنف، كما تعد مكانا لتخزين السلاح محليا، ومنها تنطلق الحملات التأديبية للقبائل الأمازيغية المجاورة الرافضة للطاعة، ومن أدوارها كذلك تقريب الإدارة الجبائية من القبائل وضبط السياسة الجبائية محليا، وتأمين مرور المبادلات التجارية بين شمال المغرب وجنوبه. وهكذا تأسست على نهر أم الربيع مجموعة من القصبات نذكر منها تمثيلا لا حصرا القصبة الزيدانية، وقصبة ابن الكوش، وقصبة إدخسان، وقصبة فشتالة، وقصبة تادلة.

- القصبة الزيدانية

تقع بالضفة اليسرى لوادي أم الربيع، بالجماعة الترابية أولاد عبد الله بإقليم لفقيه بن صالح، بنيت من طرف الأمير زيدان للإشراف على جهة تادلا وضبط الأمن بها، ويذكرها ابن زيدان في مؤلفه اتحاف أعلام الناس إذ يقول : "نصب أحمد المنصور ابنه زيدان سنة 1554 على تادلا وضواحيها والذي بنى القصبة الزيدانية فغدت حاضرتها السياسية"[5]، وبالنظر لأهميتها التاريخية فهي تنتظر اليوم تنقيبا أركيولوجيا لإعادة ترميمها، وإن كان بعض الدارسون قد قدموا تصورا شاملا لمكوناتها اعتمادا على مقاربات إثنوأركيولوجية، فإن واقع حال القصبة وتدميرها المتقدم، في غياب كتابات تاريخية تهم عمارتها جعلت أمر إعادة بنائها معقدا، ما لم يتسلح الدارسون بمواد مصدرية وأركيولوجية لإعادة رسم معالمها.

قصبة الزيدانية

Source: www.Taxi news, 2022

– قصبة ابن الكوش

يذكرها أبو القاسم الزياني في مخطوطة "الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب" إذ يقول " لما رجع المولى إسماعيل من السوس تهيأ لحركة فزاز وأمر ببناء قصبة ابن لكوش سنة 1688 وأنزل بها 500 فارس"[6]. وقصبة ابن لكوش هي أصل تشكل المدينة القديمة لبني ملال، ولقد استمر اسمها يتداول إلى أن اختفى في نهاية القرن 19 ليحل محله اسم قصبة بني ملال.

المدينة القديمة لبني ملال: مدخل الملاح اليهودي على اليسار، بقايا أسوار المدينة على اليمين[7]

المصدر: تصوير شخصي، 2014.

– قصبة إدخسان

تبعد عن خنيفرة ب 8 كلم إلى جنوبها الشرقي، وهي في الأصل قلعة مرابطية جدد بناءها العلويون، حيث وجدنا ذكرا لها عند أبو القاسم الزياني إذ يقول: "في سنة 1688 خرج المولى إسماعيل من مكناسة ...وأمر بتجديد قصبة إدخسان وجعل بها 1500 فارس"[8].

– قصبة فشتالة: وصل إليها شارل دوفوكو سنة 1883 وقال عنها: " بعد أن قطعنا واد درنة وبساتين تاكزيرت، وصلنا إلى قصبة فشتالة التي بناها المولى إسماعيل على نموذج قصبة تادلا[9].

– قصبة الدلاء

أسسها المولى إسماعيل بمركز أيت إسحاق على مقربة من الزاوية الدلائية لإحكام قبضته على القبائل التي كانت موالية للدلائيين، ويحصر جورج سبيلمان عدد الجنود التي كانت مقيمة بها ما بين 1500 و2500 من عبيد البخاري[10].

وقد كانت التحصينات تشكل جزء من حياة المولى إسماعيل، بالنظر لدورها في تقوية السلطة المركزية ورمزيتها في فرض هيبة الدولة بالمجال، لهذا الغرض بادر إلى بناء قصبات وقلاع صغرى، وإن كانت تقل أهمية عن القلاع السابقة، فإنها تلعب دورا في حمايتها وتشكل قاعدتها الخلفية وتضمن الأمن والاستقرار بمجالها، ومنها نذكر قصبة إغرم العلام، وقصبة أولاد مبارك، وفم أودي، وقصبة زاوية الشيخ.

2– الأدوار التاريخية للحصون

لقد كانت التحصينات جزء لا يتجزأ من حياة الساكنة لمراقبة تحركات القبائل المجاورة، ونشير إلى أن أغلب الحصون التي صادفناها لها أربعة أبراج وهي مربعة القواعد وتأخذ في الميلان الهرمي عند الارتفاع، إذ تراقب الجهات الأربعة بواسطة كوات وطاقات منفرجة بالداخل وتضيق بالخارج لأهداف عسكرية، وترتبط هذه الأبراج بأربعة جدران مستطيلة الشكل بنيت بالحجارة والتراب المدكوك، إذ يتجاوز سمكها المتر كما يعلو ارتفاعها إلى أكثر من ثلاثة أمتار. ولعل من أهم الحصون المتواجدة على مجال وادي أم الربيع نذكر ما يلي:

– حصن تاكرارت

ذكر البيدق عشرون حصنا ومن ضمنها أشار إلى حصن تاكرارت بتادلا، والذي يوجد على بعد 12 كلم من بني ملال، كما ذكره Gautier في مقالة له بعنوان "مدينة أوداي" والمنشور بمجلة هسبيريس سنة 1926[11]، كما أشار إليه الأستاذ محمد العاملي في مقال له بعنوان "داي أو أوداي من خلال مصادر العصر الوسيط" المنشور بمجلة تادلا، ولقد ذهب الأستاذ العاملي إلى أن تكرارت هي تحريف لتاجرارت والذي يعني الحصن العسكري الذي تم بناؤه من طرف المرابطين، لحماية الطرق التجارية على طول وادي أم الربيع [12].

حصن تاكرارت[13]

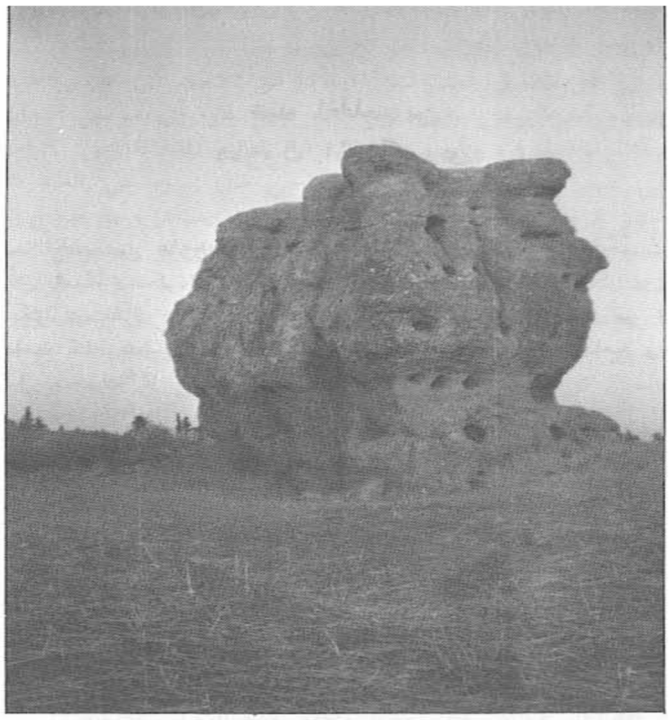

جدار من بقايا أطلال تاگرارت

المصدر: عربوش، 1991، ص. 82.

– حصن قصر عين أسردون

هو نموذج للعمل التعاوني لقبيلة بني ملال، كما يسمى حصن رأس العين، أقامته القبيلة خلال ق 19 لمراقبة منبع العين وأراضي الدير، وقد وضعت فيه دوريات للحراسة بالتناوب، خلافا للحصون المبنية بالتراب المدكوك ، فحصن عين أسردون بني بالحجارة، ونشير إلى أن القصر الأصلي تعرض للإهمال ولم يتبق منه إلا الجدران التي سارت تتسوى على الأرض[14].

حصن قصر عين أسردون ببني ملال[15]

المصدر: تصوير شخصي، 2014.

ثالثا: القصبة الإسماعيلية بتادلا: الخصوصيات المعمارية والآفاق التنموية

1- الإطار الجغرافي والتاريخي للقصبة الإسماعيلية بتادلا

1-1- المقومات الطبيعية للقصبة الإسماعيلية بتادلا

تقع قصبة تادلة على الطريق الوطنية رقم 8 على بعد 30 كلم من بني ملال، تتراوح الارتفاعات بها ما بين 470 و510 متر، وهذه الحاضرة التي كانت تعرف خلال ق 16 بتفزة[16] لم تكن سوى محطة عبور تجارية تربط بين مملكتي فاس ومراكش.

وقد شيدت القصبة الإسماعيلية بتادلا على الضفة اليمنى لوادي أم الربيع، وفيها تمت مراعاة عاملين أثناء التشييد:

أ- الاعتبار الأمني: يتمثل في كون قصبة تادلة تتوسط سهل تادلا، الذي يربط بين عاصمتين تقليديتين فاس ومراكش، وقد أهلها موقعها هذا في مراقبة تحركات القبائل الجبلية، حيث جعلها المولى إسماعيل مقرا لحامية عسكرية تضم 3000 من جند عبيد البخاري، وقد ساهم بناؤها على حافة شديدة الانحدار لوادي أم الربيع في تحصينها طبيعيا.

ب- الاعتبار الجمالي: أثناء بنائهم للقصبات كان السلاطين يستحضرون الموقع الطبيعي، فالقصبة الإسماعيلية بتادلا بنيت على هضبة تشرف على وادي أم الربيع[17] وفق خصوصيات عمرانية منسجمة مع الهندسة الإسلامية، وفي هذا الإطار يشير ابن الأزرق – أثناء بناء المدن الإسلامية- إلى مراعاة شرطين:

أ- دفع المضار: يقوم على اختيار التحصينات الطبيعية اللازمة، حيث ينبغي تأسيس المدينة وسط الجبال أو بين مجاري المياه حتى تكون سدا منيعا يصعب تجاوزه بسهولة، وهذا ما روعي في القصبة الإسماعيلية بقصبة تادلة والتي تم تشييدها على ربوة تشرف على وادي أم الربيع.

ب– جلب المنافع: يشترط توفر الموارد الحيوية وأهمها الماء والمراعي، والملاحظ أن هذين الشرطين متوفران في قصبة تادلة التي أسست بالقرب من وادي أم الربيع وتحيط بها مراعي شاسعة بسهل تادلا[18].

2 – 1 ملامح من تاريخ القصبة الإسماعيلية بتادلا

تعد القصبة الإسماعيلية بتادلا النواة الأولى لقصبة تادلة والتي أسست سنة 1687، وقد جاءت هذه القصبة في إطار مشروع المولى إسماعيل في بناء القصبات والقلاع العسكرية، خصوصا بدير الأطلس المتوسط، من أجل تأمين الطريق السلطاني ومحاصرة برابرة الجبال الذين كانوا يغيرون على مراعي الأزغار، وتشديد الخناق على الدلائيين حتى لا يعودوا يطالبوا بالحكم. والجدير بالذكر أن المولى إسماعيل قام بتشييد قصبات عسكرية مماثلة بدير تادلا نذكر من بينها: قصبة ابن الكوش ببني ملال، وقصبة فم أودي بأولاد أمبارك، وقصبة فشتالة بفم العنصر، وقصبة العلم بمركز إغرم لعلام[19].

وإلى جانب 3000 من عبيد البخاري الذين تمت إقامتهم في القصبة، فقد عمل المولى إسماعيل على إحاطتها بأربعة قبائل لمضاعفة دورها الدفاعي ولحمايتها من أي هجوم محتمل من برابرة الأطلس، وهذه القبائل هي التي شكلت اتحادية أيت الربع، وهي بني ملال، وسمكت، وكطاية، وبني معدان[20]، ثم منحها إقطاعات عسكرية عرفت بأراضي كيش ايت الربع، مع إعفائها من الضرائب والسماح برعي قطعانها في منتجعات الأزغار.

وفي سنة 1700، استخلف المولى إسماعيل أبناءه على البلاد وعهد لإبنه احمد الذهبي بإقليم تادلا، الذي اتخذ من القصبة قاعدة عسكرية وإدارية، كما عمل على توسعتها بإضافته للقصر والمسجد والمعروف بمسجد أحمد الذهبي.

وقد ظلت القصبة الإسماعيلية بتادلا في عهد السلطان المولى إسماعيل قاعدة عسكرية تنطلق منها الحملات العسكرية لمواجهة القبائل المتمردة، ومنها تم كسر شوكة أيت يمور إحدى فصائل قبيلة صنهاجة، ومن جاورهم من البرابر بأيت أومالو وبزمور[21].

وقد استمر دور القصبة الإسماعيلية في انطلاق العمليات العسكرية للقضاء على تمردات القبائل الجبلية، كما حافظت على مكانتها كمحطة رئيسية في الطريق السلطانية، وهكذا تذكر المصادر أن سيدي محمد بن عبد الله أثناء إحدى حركاته سنة 1772 ألم به المرض بتادلا فقام بقصبتها ردحا من الزمن[22].

وفي عهد السلطان مولاي سليمان حافظت القصبة على أدوارها التقليدية، وفي سنة 1818 انطلق منها بجيوشه لإخماد ثورة أبي بكر مهاوش. وخلال حكم المولى الحسن الأول زار شارل دو فوكو القصبة بتاريخ 17 شتنبر 1883 وذكر على أنها أجمل قصبة شاهدها في المغرب أنداك، فقد أعجب بأسوارها وأبراجها وشرفاتها، وذكر عدد أبوابها ومسجديها وأفاض في إعطاء تفاصيل عن هندستها المعمارية، وأشار إلى أنه يحيط بها سوران ما يزالان في حالة جيدة: سور خارجي يبلغ سمكه 1.20 متر وإرتفاعه 12 متر، وسور داخلي أقل ارتفاعا، حوالي ستة أمتار وسمكه 1.50 متر، ويفصل بينهما ممر يناهز عرضه ستة أمتار[23]، وذكر على أن القصبة كانت خالية ما عدا من قائد كيش أيت الربع الذي وجده قابعا بإزاء باب دار المخزن[24].

وظلت القصبة قائمة إلى أن استولى عليها جيش الحماية في 7 أبريل 1913 واتخذها قاعدة عسكرية للاستيلاء على باقي إقليم تادلا، فلعبت دورا أساسيا في انطلاق العمليات العسكرية لتهدئة المناطق الخارجة عن الطاعة، ثم تحولت إلى دائرة جهوية يتولى قيادتها الكولونيل غارنيي دو بليسيس، الذي وُضعت تحت إمرته الوحدة المتنقلة لتادلا.

وفي سنة 1916 تم تصنيف القصبة والقنطرة التي بجانبها على وادي أم الربيع من الأبنية التاريخية ذات القيمة الفنية، فتم التأكيد على ضرورة الإسراع في ترميمها مع منع البناء من حولها على بعد 150 متر. ومع فجر الاستقلال أصبحت القصبة تتعرض لتدمير منشآتها وتركت لحالها لعاديات الزمن، وقد استغلت عناصر القوات المسلحة اهمالها من طرف الجهات المعنية، فأقامت بداخلها بنايات عشوائية ساهمت في طمس الكثير من معالمها.

تصنيف القصبة والقنطرة الإسماعيليتين ضمن التراث الوطني سنة 1916[25]

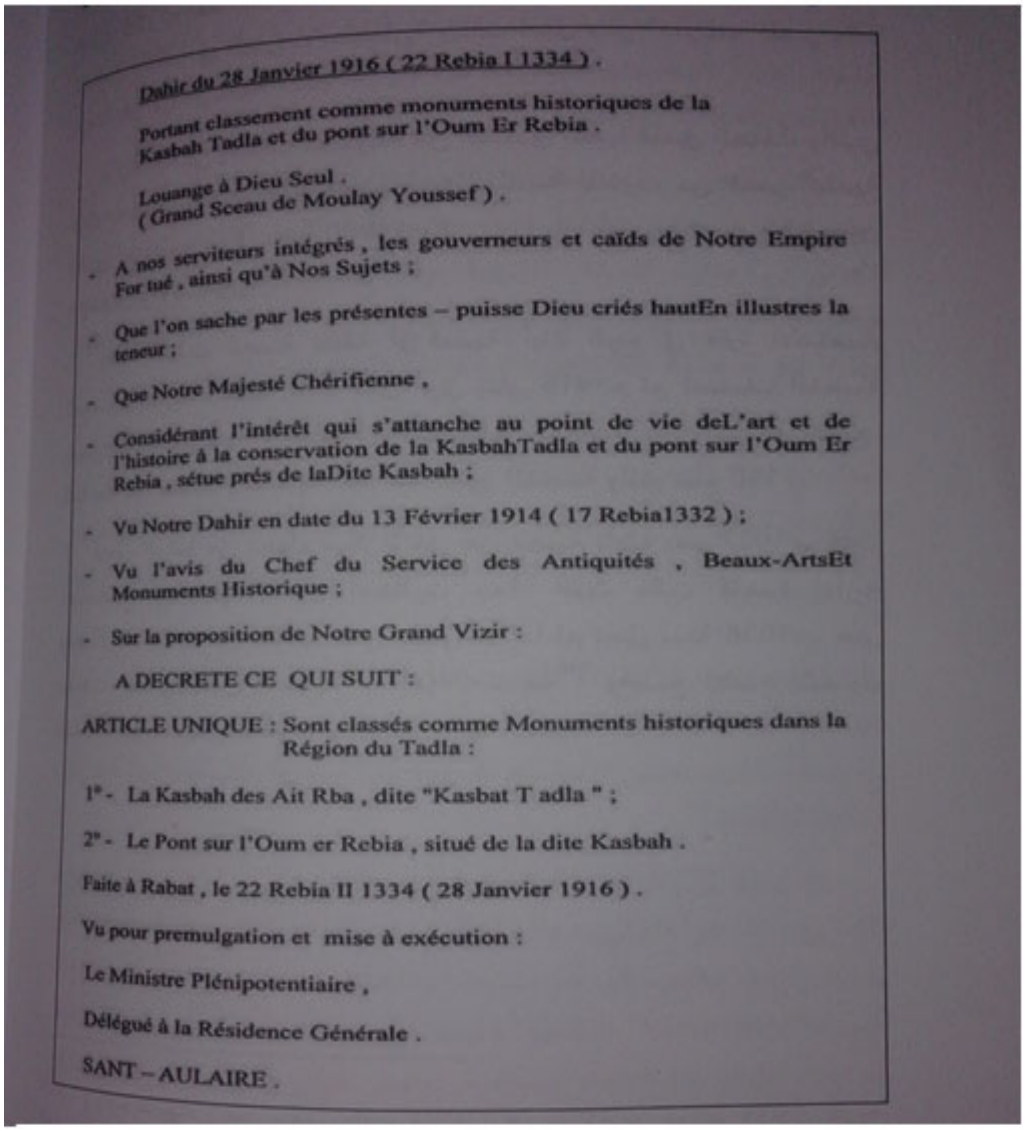

Dahir du 28 Janvier 1916 (22 Rebia I 1334) .

Portant classement comme monuments historiques de la Kasbah Tadla et du pont sur l'Oum Er Rebia .

Louange à Dieu Seul .
(Grand Sceau de Moulay Youssef) .

- A nos serviteurs intégrés , les gouverneurs et caïds de Notre Empire For tué , ainsi qu'à Nos Sujets ;
- Que l'on sache par les présentes – puisse Dieu criés hautEn illustres la teneur ;
- Que Notre Majesté Chérifienne ,
- Considérant l'intérêt qui s'attanche au point de vie deL'art et de l'histoire à la conservation de la KasbahTadla et du pont sur l'Oum Er Rebia , sétue prés de laDite Kasbah ;
- Vu Notre Dahir en date du 13 Février 1914 (17 Rebia1332) ;
- Vu l'avis du Chef du Service des Antiquités , Beaux-ArtsEt Monuments Historique ;
- Sur la proposition de Notre Grand Vizir :

A DECRETE CE QUI SUIT :

ARTICLE UNIQUE : Sont classés comme Monuments historiques dans la Région du Tadla :

1°- La Kasbah des Ait Rba , dite "Kasbat T adla " ;

2°- Le Pont sur l'Oum er Rebia , situé de la dite Kasbah .

Faite à Rabat , le 22 Rebia II 1334 (28 Janvier 1916) .

Vu pour premulgation et mise à exécution :

Le Ministre Plénipotentiaire ,

Délégué à la Résidence Générale .

SANT – AULAIRE .

المصدر: باشوية قصبة تادلة

2– عناصر القصبة الإسماعيلية بتادلا وخصائصها المعمارية

2– 1 الأسوار

أشار شارل دو فوكو إلى أن أسوار القصبة الإسماعيلية تمتد على مساحة هكتارين، بسمك يبلغ 1.50 متر وارتفاع يتجاوز ستة أمتار[26] ومبنية بمادة الطابية، وهذه الأخيرة هي عبارة عن تراب أحمر ممزوج بالحصى والجير وقليل من الماء، حيث يتم وضع هذه المواد مجتمعة في قالب خشبي ودكها بواسطة المركاز حتى يشد بعضه بعضا ويصبح متماسكا، وتنتهي في الأعلى بشرفات مسننة، وللمزيد من الاحتياطات الدفاعية تم تحصين هذه الأسوار ب 16 برجا للمراقبة، أهمها البرج المائي المعروف " بالبستيون " المشرف على وادي أم الربيع.

2– 2 الأبواب

يخترق سور القصبة خمسة أبواب مقوسة على شكل حدوة الفرس تختلف من حيث عرضها وزخرفتها، ولعل أبرزها الباب الشمالي الغربي وهو الذي لا يزال مستعملا اليوم، كما جهزت القصبة بأبواب سرية ومتاهات معقدة المسارات لا يأمن من النجاة في سلكها إلا المتمرسين عليها.

2 – 3 القصر السلطاني

وهو المعروف بدار المخزن، يتشكل من الدار الكبيرة وهي المسكن الخاص بالسلطان أو بخليفته، ومن الدويرية التي فيها يتم استقبال الضيوف، ودار الحكم التي يتم فيها مباشرة المهام المخزنية والقضائية، والرياض وهو عبارة عن إقامتين متقابلتين تحيطان بحديقة فسيحة. ولمراقبة أمن القصر تم إحداث برج الإقامة على مقربة منه لتحصينه من الهجومات المحتملة[27].

الباب الشمالي (الرئيسي) للقصبة الإسماعيلية[28]

المصدر: تصوير شخصي، 2014.

4– 2 المساجد

اعتنى المولى إسماعيل وابنه أحمد الذهبي ببناء المساجد مثلما اعتنيا ببناء القصبات، وهكذا أسس المولى اسماعيل مسجدا بالجهة الشرقية، يتميز بصغر بلاطه وبساطة هندسته ربما لأنه لم يكن مفتوحا للعموم، وتعد صومعته إحدى التحف المعمارية المميزة للقصبة وهي ذات شكل مربع، يبلغ ضلعها خمسة أمتار وطولها 29 مترا، وزخرفت واجهاتها بتشبيكات هندسية بارزة، ولتوفير الإضاءة بداخلها تم تجهيزها بنوافذ متباعدة. وبالجهة الغربية للقصبة أسس أحمد الذهبي مسجدا لا يقل روعة ذو بلاط أكثر إتساعا من مسجد والده، ربما لأنه كان يرتاده عموم الناس، يتميز بصومعة مستطيلة الشكل وببساطة زخرفتها وباحتفاظها بأعمدة البناء مغروسة في واجهاتها.

5 – 2 المخازن

تمتد المخازن على مساحة مستطيلة بقياس 26 متر على 54 متر، وتشكل جدرانها الجانبية امتداد لأسوار القصبة من الناحية الجنوبية، وتتمتع ببناء متين وسقوف مقببة، وهذه المخازن بضخامتها كانت تستعمل لجمع الضرائب العينية ببلاد تادلا ومن ثمة توجيهها للعاصمة مكناس[29].

6 – 2 السجن

في أقصى الغرب من القصبة يوجد سجن يمكن الوصول إليه بعد أربع خطوات نزولا عن سطح الأرض، وقد احتفظ بوحداته الأصلية وهي عبارة عن غرف ذات تصميم متشابه وسطوح مقببة[30].

3 – مشروع ترميم القصبة الإسماعيلية وآفاقه التنموية

1– 3 إستراتيجية التدخل لترميم القصبة الإسماعيلية بتادلا

بتعاون بين الجهات المعنية بترميم القصبة الإسماعيلية تم تكليف "سيركاس" (مركز صيانة وتوظيف قصبات الأطلس والجنوب) سنة 2010 للقيام بمسح ميداني وانجاز دراسة، تهدف إلى إعادة المعلمة إلى حالتها الطبيعية دون تغيير في هندستها المعمارية أو طبيعة مواد بنائها، وهكذا تم تقدير التكلفة الإجمالية لترميم القصبة ب 30 مليون درهم[31].

ولقد تضمن المشروع تقسيم الأدوار بين الجهات الوصية، حيث تكفلت وزارة الثقافة بدراسة شاملة لعملية الترميم، وتكفلت بلدية قصبة تادلا بتهيئة جنبات القصبة وأسوارها الشمالية وتشييد حديقة على واجهتها، وتكفلت إدارة الأملاك العسكرية والسلطة المحلية بإفراغ السكان المقيمين بداخلها، بينما تكفلت مديرية الجماعات المحلية بتوفير مبلغ ترميم القصبة[32].

وقد تضمن مشروع الترميم مجموعة من التوصيات نذكرها كما يلي:

– التخلص من البناءات الزائدة التي أضافتها عائلات الجنود المستقرين بالقصبة.

– تعزيز البناءات الأساسية وتقوية الواجهات المهددة بالانهيار.

– ترميم القصر السلطاني وملحقاته.

- ترميم مسجدي مولاي إسماعيل وأحمد الذهبي وتزويدهما بالماء والكهرباء والصرف الصحي.

- تجهيز الصرف الصحي وتبليط الممرات وإدخال الإنارة العمومية.

- تقوية الأسوار المتهالكة وترميم الأخرى التي شهدت انهيارات جزئية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة تمت سنة 2010 وتم تحيينها سنة 2016، وفي انتظار إعادة تأهيل للقصبة فقد تكفلت بلدية قصبة تادلة بترميم الأسوار الشمالية، في حين الأسوار الجنوبية والغربية فقد برمجها مجلس جهة بني ملال خنيفرة، وتعهدت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بترميم مسجد المولى إسماعيل بمبلغ 5 مليون و300 ألف درهم بشكل جزئي ربما لأنه كان لا يزال في طور البناء، أما مسجد أحمد الذهبي فتم ترميمه بشكل كلي بمبلغ 270.000 درهم، وتم تسقيفه بأخشاب من الأرز وحرص على زخرفته معلمون قدموا من فاس[33].

مسجد أحمد الذهبي يمينا ومسجد المولى إسماعيل يسارا بعد الترميم سنة 2011[34]

الأسوار الشمالية للقصبة بعد الترميم	الأسوار الجنوبية قبل الترميم[35]

المصدر: تصوير شخصي، 2017.

2 – 3 الآفاق التنموية لمشروع ترميم القصبة

أعدت وزارة الثقافة بتشارك مع مركز "سيركاس" دراسة تتضمن مقترحات لتأهيل القصبة خدمة للتنمية المحلية، على اعتبار أن الاستثمار في التراث له أهمية في جذب السياحة الثقافية. وهكذا فمن هذا المنظور سيساهم ترميم القصبة في جلب الزوار المهتمين بالتراث، ويمكن ذلك من خلق مناصب شغل وتنشيط الفنادق وبالتالي خلق إقلاع تنموي بالمدينة.

وبناء عليه، وموازاة مع مشروع تأهيل القصبة، تم تسطير مجموعة من المقترحات روعي فيها الجانب السياحي والوظيفي وتهدف إلى ما يلي :

– إعادة تأهيل المخازن وتحويلها إلى مكتبة متعددة الوسائل وإلى فضاء للعرض المسرحي والسينمائي والترفيهي.

– بناء ورشات للصناعة التقليدية – انسجاما مع ذاكرة المكان – مما سيشجع على تثمين المنتوج التقليدي.

– تأهيل مكان خاص بمقهى.

– ترميم الإسطبلات وتحويلها إلى متحف يحفظ الأدوات الإثنوغرافية التي اشتغل بها الإنسان التادلي عبر التاريخ.

– تأهيل البرج المطل على السد واستغلاله كفضاء للاستمتاع بمناظر وادي أم الربيع.

– استغلال الأحداث المرتبطة بالقصبة واستغلال عمقها التاريخي وتراثها المعماري في الصناعة السينمائية.

خاتمة

إن الأهمية الجغرافية لنهر أم الربيع من حيث هو نقطة أساسية للعبور بين شمال المملكة وجنوبها، جعلت من الأسر المتعاقبة على حكم المغرب تشيد على ضفافه تحصينات عسكرية وقصبات لتمثيل السلطة المركزية محليا، تفنن الصانع في هندسة بنائها بمواد محلية.

وإن كانت هذه المباني قد أدت وظائفا إدارية وعسكرية وحبائية في زمنها، فإنها أصبحت تشكل في الحاضر تراثا وطنيا وذاكرة جماعية، لكن عوامل مختلفة ساهمت في تدهورها، وهي عوامل في جزء منها طبيعي والآخر بشري، وأمام هذه الحالة الهشة لهذه المعالم التاريخية فلا يكفي القيام بترميمها وتركها عرضة لعاديات الزمن، بل بات من الضروري رسم استراتيجية واضحة على أعلى مستوى ليتم وضع سياسة للتراث على المستوى القانوني والمؤسساتي والمالي ، هذا مع نهج مقاربة تشاركية لعملية الترميم تسائل الجهات المعنية و المجتمع المدني، لتحسيس الجميع بمسؤولية الحفاظ على التراث المبني وأهميته في صون الذاكرة الجماعية من جهة، واستغلاله كرافد من روافد التنمية المحلية من جهة ثانية.

الهوامش:

[1] عبد المنعم الحميري، الروض المعطار تحقيق احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ص. 605

[2] المجهول ، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، نشر جورج كولان، الرباط، 1993، ص.9.

[3] معلمة المغرب، الجزء 19، مطابع سلا، 2004، ص. 6633

[4] المعجم العربي الأساسي، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطابع أميريمتو لبنان، 1991، ص.325.

[5] عبد الرحمان بن زيدان، اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج 3، الرباط، 1931، ص. 68.

[6] أبو القاسم الزياني، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 658، ص. 380

[7] تصوير شخصي.

[8] Georges Spillman, esquisse d'histoire religieuse du Maroc, faculté des lettres, Rabat, 2011, p. 145

9 E. F. Gautier, « Medinat Ou- Dai », in: Hespéris Tamuda, tome4, Rabat, 1926, p. 15

[10] Georges Spillman, op. cit, p. 145

11 Gautier, Medinat ou Dai op. cit, P, p. 2, 3 ,7 ,8.

12 محمد العاملي، "مدينة داي أو أوداي من خلال مصادر العصر الوسيط" في ندوة: تادلا: التاريخ، المجال، الثقافة، منشورات كلية الآداب بني ملال، سلسلة ندوات رقم 1، 1993، ص. 52

13 مصطفى عربوش، من أعلام منطقة إقليم تادلة وبني ملال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991، ص. 82.

14 محمد بلبشير بوسلام، تاريخ قبيلة بني ملال، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1991، ص.78.

15 تصوير شخصي.

16 الوزان محمد الفاسي، وصف افريقيا، ترجمة محمد الأخضر ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة 2، 1983، ص. 183

17 يعد نهر أم الربيع من أكبر الأنهار المتميزة بانتظام جريانها على الصعيد الوطني، حيث ينبع من الأطلس المتوسط ويصب في المحيط الأطلسي بالقرب من أزمور، ويشكل موردا للسقي بتادلا ويستغل لتغذية المركز الهيدروكهربائي بالفقيه بن صالح.

18 ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد عبد الكريم، نشر الدار الغربية للكتاب، ج 2، 1977، ص- ص. 764- 766.

19 أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية ودورها الاجتماعي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989، ج 2، ص 73

20 اقترن اسم القصبة الإسماعيلية بتادلا بهذه القبائل، تارة تسمى قصبة تادلة وتارة تسمى قصبة ايت الربع وتارة القصبة السعيدة، وفيها كان يقيم خليفة السلطان.

21 محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، الرباط، 1986، ص. 112

22 الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء الجزء 4، ص. 32

23 أحمد عمالك، "ملامح من تاريخ قصبة تادلة"، في: ندوة: تادلا: التاريخ، المجال، الثقافة، كلية الآداب بني ملال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993، ص. 93

24 شارل دوفوكو، التعرف على المغرب 1883، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الرباط، 1999، ص.57

25 المصدر، باشوية قصبة تادلة.

26 شارل دوفوكو، التعرف على المغرب، المرجع السابق، ص. 57

27 مريم البوزكراوي، الأدوار التاريخية للقصبة الإسماعيلية بتادلا، مطابع الرباط نت، 2016، ص- ص. 56 - 72

28 تصوير شخصي.

29 مريم بوزكراوي، المرجع السابق، ص. 78

30 نفسه، ص 80

31 تقرير عن مديرية الثقافة إقليم بني ملال 2010

32 نفسه.

33 بوشتى لمرابط، رئيس معلمي الترميم بمساجد القصبة الإسماعيلية 2011

34 تصوير شخصي

35 تصوير شخصي.